الأب الدكتور أنطوان ضو -
الوسطية في الإسلام

الوسطية في الإسلام هي قيمة إنسانية ودينية وحضارية وثقافية وسياسية واجتماعية، وفي الوقت نفسه هي كنز مشترك للعالمين.

الأمة الإسلامية هي وسطية كما جاء في القرآن الكريم: **(وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ)** (البقرة: ١٤٣)، وهي لا تعني فقط الحق والعدل والاعتدال، إنما هي أيضاً أمة الحرية والتسامح والتراحم والمحبة وسائر القيم والفضائل.

الوسطية هي ثقافة إسلامية شاملة تطال حياة الإنسان والمجتمع والدولة والأمة والعالم كله.

ودعوة القرآن الكريم ليست موجهة إلى الأمة الإسلامية فقط إنما هي دعوة إلى المسلمين ليكونوا شهوداً على الناس، وشركاء مع كل الناس في بناء عالم الأخوة والعدل والتضامن والأمن والاستقرار والسلام.

الأمة الإسلامية في مفهومها المعاصر لم تعد مقتصرة على المسلمين فقط، وهي لم تكن كذلك عبر تاريخها الطويل، إنما هي أمة أهل الكتاب وسائر الشعوب والأمم شرقاً وغرباً والكون بكامله كما خلقه رب العالمين.

الأمة الإسلامية ليست أمة جغرافية وقومية. واليوم، المسلم يعيش في قرية كونية جديدة، فهذا العصر وتقنياته أزال الحدود والحواجز بين الدول والأمم والشعوب وقرّب بين الناس، ودعاهم إلى العيش معاً بشراكة ووحدة وأمان وسلام.

المسلمون اليوم، هم مسؤولون عن خلاص وسلام جميع الناس في الأمتين العربية والإسلامية. وانتشار المسلمين في العالم يحملهم مسؤولية جديدة في خلاص الأمة وخلاص العالم معاً.

وإن أمة المسلمين هي أمة الناس جميعاً، وهي تحتضن أمماً متعددة وهي مسؤولة معهم عن عيشهم الكريم وأمنهم واستقرارهم وحياتهم وكرامتهم وحرياتهم. (لا إكراه في الدين) وإذا كان الخلق كله من الله فالأرض خلقت لجميع الناس بلا استثناء.

وبعد، ماذا نقول عن دعوة المسلمين والمسيحيين الجديدة الذين أصبحوا يشكلون أكثر من ٥٥ في المئة من سكان الأرض، أليسوا مسؤولين معاً عن خلاص أنفسهم وخلاص العالم كله، ألا نؤمن معاً بأن الله تعالى هو خالق السموات والأرض والإنسان والحيَوان والنبات والكواكب وكل شيء. ألم يحمّلنا الله تعالى مسؤولية الحفاظ على هذا الكون وإدارة شؤونه بصدق وإخلاص.

الوسطية هي دعوة للانفتاح والتواصل والرفض المطلق لمبدأ الانغلاق والغلوّ والفصل.

الاعتراف بالآخر

إن الاعتراف بالآخر المختلف وبالتنوع والتعدد والهوية والخصوصية لا يعني إطلاقاً انقساماً وتقسيماً، ونزاعاً وصراعاً، أو تطهيراً عرقياً أو دينياً أو إلغاءاً للآخر، إنما يعني التلاقي والتقارب والتفاهم والعيش معاً والتعاون والتضامن والتفاعل والشراكة والوحدة في التنوع. لكن حق الاختلاف مقدس، والحرية مقدسة، والمسؤولية حق وواجب. الاختلاف لا يعني بأي شكل من الأشكال الخلافات والنزاعات والصراعات والحروب والعدوان، إنما الاختلاف يعني الحوار والنقاش.

إن الإسلام يدعو المسلمين والآخرين إلى معرفة الذات والآخرين ويدعوهم إلى التعاون والفهم الحقيقي والتسامح معهم.

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا) (الحجرات: ١٣).

لقد خلق الله الناس ليتعرف بعضهم إلى بعض ولكي يعيشوا بعدل وسلام ورحمة وليبتعدوا عن الظلم.

جاء في الحديث القدسي: «يا عبادي إني حرَمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرّماً فلا تظالموا»(٥) .

وإذا كان العدوّ مستعداً للسلام الحقيقي فالقرآن الكريم يقول: **(وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)** (الأنفال: ٦١).

أما إذا لم يُبْد العدوّ رغبة في السلام، فيصبح الجهاد ضرورة للدفاع عن الحق، فالإسلام يدعو إلى معركة أخلاقية (وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ) (البقرة: ١٩٠).

وقد أوصى الإسلام المسلمين بالتسامح إزاء كل الناس: (لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ) (الممتحنة: ٨).

الإسلام لا يفقد الأمل بالمصالحة والسلام. يقول القرآن الكريم: (إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) (الممتحنة: ٧).

أما الأعداء الذين يظلمون فلا سلام معهم: يقول القرآن الكريم: (إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) (الممتحنة: ٩).

السياسة هي علم وفن وأخلاق وقيم ورؤى ونضال متواصل من أجل خدمة الإنسان والمجتمع والدولة وتعزيز حق الإنسان في الكرامة والحرية والعدالة والمساواة بين الجميع.

السياسة هي خدمة الآخرين بصدقية وحل مشاكلهم ومساعدتهم باحترام ومحبة وبناء مستقبل أكثر إنسانية وعدلاً وسلاماً ورفاهاً.

السياسة هي التي تقاوم الظلم والاستبداد والعنف والكراهية والحرب والاحتلال. وبقدر ما تلتزم السياسة بقضايا الاستقلال والسيادة والحرية فهي مسؤولة في الوقت نفسه عن مقاومة العدوان والاحتلال من أجل الحرية والتحرير والتحرر.

إن النظام السياسي الديمقراطي عليه أن يكون في خدمة الوطن والمواطن، والعمل السياسي يهدف إلى تعزيز قيم الحرية والعدالة والانفتاح والمعالجة والتواصل، وهو لا يثمر من دون صدقية وشفافية واستقامة وإخلاص.

إننا بحاجة في هذا الزمن إلى الشجاعة والمثابرة والعزم في إجراء المصالحة الوطنية وتعزيز الخير العام والمشاركة والمسؤولية والعيش المشترك والحوار بين الحضارات والثقافات والأديان وإلى الحوار بين الشرق والغرب.

إن عالمنا المعاصر رغم تقدمه وتطوره وإنجازاته فهو لا يزال بأمسّ الحاجة إلى تعزيز القيم الإنسانية والروحية والأخلاقية والحضارية والثقافية والعلمية والسياسية والاجتماعية والتنموية، من أجل أن تصبح الحياة فيه أكثر كرامة وحقاً، وحرية وعدلاً، وانفتاحاً ومسؤولية، وتسامحاً ومصالحة، وتعاوناً وتضامناً، وعدالة وتنمية، وسلاماً ومحبة ومساواة وازدهاراً اجتماعياً ومدنياً. وهذه هي رسالة المسلمين والمسيحيين معاً.

وينتاب الوضع العالمي في مطلع القرن الحادي والعشرين الخلل والخطر، والاستغلال والهيمنة، والظلم والعنف، وإشعال نار الحروب من أجل المتاجرة بالسلاح، ووضع اليد على ثروات الدول والشعوب من أجل استئثار فئة معينة بخيرات الأرض منتهجين سياسة مغرضة وظالمة فهؤلاء لا يستحقون إلا التنديد ومقاومة أعمالهم ومشاريعهم وأفكارهم الاستغلالية بشتى الطرق.

الفكر الوسطي يعني دوماً الاعتراف بالآخر المختلف وبالتنوع والديمقراطية والمشاركة الحقيقية والعيش المشترك والتفاهم والوفاق وحل النزاعات بالحوار والمفاوضات واللا عنف.

الفكر الوسطي يرفض الظلم والاستبداد والقهر والاضطهاد والهيمنة.

الفكر الوسطي يميز بين الخير والشر، بين الحق والباطل، بين الإيجابية والسلبية، بين الثابت والمتحول، بين الغلو والإفراط والتشدد، وبين التعقل والتروي والانفتاح والحوار والنقاش البناء وتغيير الذهنيات: (إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ) (الرعد: ١١).

أخيراً، لا تعني الوسطية، بأي شكل من الأشكال الميوعة والتردد والكسل والتنازلات إنما هي حركة تحرر من فضاء الغلو والتطرف والجهل بالآخر والعنف والعداء للانصراف إلى الحوار الجدي لحل مشاكلنا وبناء مستقبلنا.

إن التربية على الحوار والوسطية والاعتدال هي أولوية في حياتنا الشخصية والعائلية والاجتماعية والوطنية والإسلامية والمسيحية والعربية والعالمية.

•••••
•••
•

(•) راجع صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي، ج٤، ص١٩٩٤، القاهرة، ١٩٩٥.